طرقات على باب التدبر

الجزء الثاني

سورة الحجرات

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

ذلك والله من أعظم ما ينبغي للمرء أن يحمل همه وينتبه إليه

أن ترتكب شيئا تحسبه هينا وتستصغره عينك وتقاله نفسك وهو عند الله عظيم

ولقد كاد الأخيار أن يهلكوا وتمحق أعمالهم لأجل شيء مثل هذا

درجة صوت جاوزت ما ينبغي لها، وارتفعت على صوته الشريف جهرا له بالقول كما يجهر الخلق بعضهم لبعض = كادت أن تحبط ما قدموا من عمل فما بالك بمن يسيء الأدب معه ومع شرعته ويدمن التقديم بين يديه والتعالي على هديه وسنته؟!

❁ ❁ ❁

الإيمان مُزين..

حتى اللفظ نفسه له بهجة وجمال

تلك الكلمة التي ما إن تذكرها حتى تشعر ببردها يسرى من القلب لينساب بهدوء، وسكينة إلى سائر مكونات الروح، وثنايا النفس

إنها الكلمة التي تضافرت نصوص الكتاب والسنة على إلقاء ظلالها الوارقة في قلب المؤمن وعلى ترسيخ الشعور بأن الإيمان شيء ملموس ظاهر له لذة مادية ومعنوية بل و لذة بصرية

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾

وهذا هو ما تضافرت عليه أحاديث النبي ﷺ لتشعر بها حين تسمع كلمة "الزينة" دعائه ﷺ: «**اللهم زينا بزينة الإيمان**»

ثم يستقر هذا الإحساس أكثر حين تسمع قول ربك: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾

إنه تجسيد عجيب لهذا المعنى الأهم فى حياة كل منا

معنى #الإيمان

لعلنا يوما نتذوق طعمه وحلاوته ونتدثر بثوبه ونرى زينته ونشهد بهاءه بعين قلوبنا

❁ ❁ ❁

ليس كل الظن إثم وليس جُله ولكن فقط = بعضه كما بنص الآية..

مع ذلك جاء النهي في صدر الآية عن كثير الظن وليس قليله أو بعضه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾

إنما مثل الإثم كمثل الورم الذي يقال عنه خبيث إذا أراد طبيب أن يستأصله فعليه أن يستأصل معه ما يعرفه الأطباء بالهامش الآمن margin safety

لابد أن تترك حواجز بينك وبين الإثم

لابد أن تكون ثمة مسافات تفصلك عنه

حدود آمنة لا تحوم حولها وإلا وقعت فيها

لا تتهاون في الكثير فتقع في القليل

كما أن الله جَلَّوَعَلَا قد حبب الإيمان لعباده فإنه قد كرَّه إليهم نقيضه

بل نقائضه

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾

أما الكفر فلا شك أن جُل الخلق يكرهونه ولا يحبون الانتساب إليه أو نسبته إليهم ويتعوذون منه كما يتعوذون من الفقر ومجرد تلميح بذكر الكفر كفيل بإثارة غضبهم واتهامك بتكفيرهم ورفض ذلك تماما

حسنا

هذا جيد

لكن السؤال الذي ينبغي أن نصارح أنفسنا بإجابته = هل حقا تستقر في أنفسنا كراهة باقي ما كُرِّه إلينا؟

هل نكره الفسق وتجلياته من فحش وبذاءة وفجور

هل نبغض العصيان؟

هل نحتقر الذنوب والآثام؟

هل ننفر من سبل الغي والفساد؟

أم مِنَّا من يحب كل ذلك أو بعضه؟

منَّا من يشتهيه يسعى إليه سعيا؟!

الكفر والفسوق والعصيان..

الثلاثة يفترض أن يكرههم قلب المؤمن

لكن ليس كل مؤمن يفعل

فقط المؤمن الراشد هو من يدرك عواقب تلك الأشياء وحقيقة بشاعتها

فيكرهها

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

الراشدون فقط

الغيبة شهوة ولا ريب

ولتلك الشهوة لذة تقارب لذة الطعام الشهي والتمتع باللحم الطيب

إنها لذة تغلف حقيقة هذا الطعام الفاسد وتحول بين المرء وبين إدراك مدى سوئه وضرورة التقزز والاشمئزاز من مجرد تذوقه فلا يلحظ أثناء تناوله أنه ينهش لحما ميتا

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾

بالطبع لا أحد يحب ذلك

لا يوجد شخص طبيعي يحمل شهوة الغيلان الأسطورية التي تتغذى على لحوم البشر

إن كان ذلك فلماذا لا تتحقق تلك النتيجة الطبيعية التي تلت هذا المثال القرآني؟

لماذا لا تتحقق ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾

بل الحقيقة أن ضد ذلك هو ما يحدث

نحب الغيبة ونشتهيها وما أصدق وصف العامة لها بأنها = فاكهة المجالس

الجواب هو تلك اللذة

لذة تنتابك حين تعين نفسك حكما على غيرك وتقرر أن تطلق الأحكام على هذا وذاك..

لذة العُلُو وتعاظم النفس

الآخرون دوما جهلة مخطئون ومقصرون بل وربما فاسقون معتدون..

النتيجة المباشرة والسريعة التي تتبادر للأذهان تتلخص في جملة بسيطة = أنا طبعا لست مخطئا ولا مقصرا مثلهم وبالطبع لست فاسدا أو فاسقا

أنا نموذج الصلاح وعنوان الهداية وعلامة التقوى وخزانة العلم ومفتاح الخير والبر..

حتى لو لم يصرح ناهش غيره للمستمع بهذه المعاني فيكفي أنه يشعره بها ويلقيها في روعه من خلال تلك المتلازمات

هم عاصون = إذاً فأنا الطائع

هم مبطلون = فأنا المحق

هم ناقصون = فأنا المكتمل

شعور ممتع هو... أليس كذلك؟!

المشكلة أنه مورث للإدمان

إدمان لهذا العلو القائم على رفات الآخرين الذين يشكل نقدهم الدائم والمستمر وقودا لبقاء هذا الشعور الذي أدمنه صاحبه وصار تجارته الرائجة وصار من ملوك سوقه

والمشكلة الأكبر أنه كأي مدمن طبيعي لن تكفيه ذات الجرعة ولن ترضيه قضمة أو تشبعه نهشة

سيستزيد ويستزيد

وسيستكثر ويستمر في تناول وقود علوه من خلال التربص بالآخرين ونهشهم الدائم حتى ينسى في نهاية الأمر وجود مرآة تستحق أحيانا أن ينظر إليها ليُقيِّم أهم شخص ينبغي أن يقيِّمه ويحكم عليه....

نفسه!

سورة ق

﴿فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٖ﴾

أمر مضطرب

ملتبس

مختلط

مختلف

تلك كلها مرادفات ووجوه لهذا اللفظ القرآني الجامع الذي يلخص حال تلك الفئة من البشر

المكذبون

منكرو الحق

كذلك دوما أمرهم

أمر مريج....

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾

هم دوما في لبس واختلاط واضطراب واختلاف

فما بين شك وإلحاد وجحود ولا دينية وعدمية ولاأدرية... إلى آخر تلك الأطروحات المتباينة بمختلف اصطلاحاتها المخترعة وتفاصيلها المتكلفة = يدور المكذبون بالحق الذين لا يتفقون إلا على أصل واحد

أصل التكذيب

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾

ومهما تنوعت فلسفات التكذيب ومبرراته فإنها تشترك كلها في تلك الكلمة الجامعة التي تصف حالهم بدقة كاملة

مريج!!

❁ ❁ ❁

لقد كان معي بالأمس!!

لقد كانت تهاتفني منذ يومين فقط..

كان يمازحني وحالته النفسية من أروع ما يكون

كانت بصحة ممتازة!!

لم يكن يشتكي من أي مرض!

هو لم يزل في ريعان شبابه..

هي في أوج صحتها كمال تألقها

لقد اختطف!

لقد رحلت..

لا يمكنني تصديق أننا لن نراه بعد اليوم!!

هذه عينة من جمل تشعر أن سماعها يكاد يكون عاملا مشتركا عند كل وفاة

جمل تلخص حالة الدهشة والتعجب حيال موت المقصود بها

لكن ما سبب هذه الدهشة المفرطة والذهول المتكرر

هل يفترض أن يتعامل الميت في الأيام والساعات السابقة لموته باعتبار ما سيكون بعد حين؟

هل يتصور أن ساعاته في الدنيا صارت معدودة ومن ثم عليه أن يهجر الخلق ويدع هاتفه وتعاملاته مع الناس ويتفرغ فقط للاستعداد لما هو مقبل عليه؟

هل هو يعلم أو يشعر؟

الإجابة عن كل ما سبق لن يختلف فيها متدبر متأمل

لا..

لا يفترض ولا يشترط شيء من ذلك

قد تكون هناك استثناءات ومؤشرات في بعض الحالات لكن الحقيقة التي يعلمها الجميع ويوقنون بها هي ببساطة تتلخص في جملة واحدة

الموت يأتي بغتة

أينما تكونوا يدرككم الموت

وما تدري نفس ماذا تكسب غدا

وما تدري نفس بأي أرض تموت

ساعة الموت وميعاد الأجل وقيامة ابن آدم الصغرى = كل ذلك غيب لا يعلمه إلا الله

لماذا إذاً كل هذا التعجب؟

ما سبب كل تلك الدهشة ما دمنا جميعا ندرك هذه الحقائق؟

أعتقد أن الأمر في حقيقته هو حالة من إنكار الواقع سببها الرغبة

كلنا لديه تلك الرغبة

الرغبة في ألا نؤخذ بغتة

أن تكون لدينا الفرصة لنتدارك أنفسنا

لنستعد ونتهيأ لتلك اللحظة

لحظة الموت

هذه رغبتنا وهي تتحول بالتدريج إلى ظن نتركه يتنامى في نفوسنا

ظن مفاده أن هذا يحدث فقط للغير

لن نؤخذ بغتة

لن نموت فجأة

أكيد ستواتينا الفرصة

أكيد سنشعر أو تكون هناك مقدمات

يتعاظم هذا الظن حتى نركن إليه وتصيبنا تلك الحالة المتقدمة من إنكار الحقيقة وننسى ونتغافل عن كوننا لن نعلم أبدا

ثم يصدمنا موت الفجأة لنستيقظ من تلك الحالة الإنكارية ونتعلم أن الأمر حدث ويحدث

حدث لغيرنا اليوم

وسيحدث لنا غدا

سنهاتف فلانا

ونتناول العشاء مع علان

ونمازح فلانا وفلانة

ثم لا يجدوننا إلى جوارهم

وسيندهشون أيضا ويتحدثون عن تلك المواقف التي شاركناهم إياها أمس ليفاجأوا اليوم بأننا قد غادرناهم

سيندهشون كما دهشنا ويتعجبون كما تعجبنا لأنهم نسوا وغفلوا كما نسينا وغفلنا

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾

هذه هي المشكلة

الحيدة

التغافل

الرفض

الإنكار

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾

هذه الغفلة هي ما تجعلنا في كل مرة نفاجأ

نتعجب من مباغتة الموت

ونحزن لأننا لم نعلم ولن نعلم

لكن عدم تمكننا من العلم لا يعني عدم تمكننا من الأمر الآخر المرتبط بهذا العلم

الاستعداد

أن نتأهب لتلك اللحظة

ألا نركن لعمل لا نحب أن نلقى الله ونحن متلبسون به

ألا يطول بنا الأمد وتغرنا الأماني ويلهينا الغرور

عندئذ لن يكون لهذه الجمل محل من الإعراب ولن يكون هناك مجال للدهشة

فقط حين نستعد

وإن لم نكن نعلم

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾

منه...

تأمل الحرف القرآني بدقة..

إن المشتهر في لغة العرب أن الحيدة تكون (عن) الشيء وليس (منه)

وفي المعاجم وكتب اللسان يقال حادَ عن الشيء يَحيدُ حُيوداً وحَيْدَة ويُقصد الميل عن الشيء والانحراف عنه

وذلك المعنى – الحيود – لا يكاد يخلو معجم من إقرانه بحرف الجر عن

بينما يأتي حرف الجر (من) عادة مع الفرار والهروب من الشيء

في الآية الكريمة ورد حرف الجر "من" في سياق الحديث عن تلك الحقيقة التي يحاول الإنسان أن يميل عنها أو يزعم ذلك

حقيقة الموت وسكرته

تلك المسلمة الآتية لا محالة

فهل يظن أحد حقا أنه يفر من الموت؟!

الحق أنه لا يوجد عاقل يزعم أنه قادر على الفرار من هذا.

فما العمل إذا؟!

إنها الحيدة...

فليمل عنه

فليتغافل وليتناسى بكل طريق

لكنه مهما فعل وادعى وزعم أنه يحيد فستأتي تلك الحقيقة المستقرة ترسخها الآية بوضوح

إنه ليس مجرد طريق يمكن للمرء الميل عنه ومغادرته

إنه منه وإليه

مصير ملازم له لا يغادره ولا يفارقه

فقط يمكنه أن يوهم نفسه بتأجيله وابتعاده عنه

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾

❁ ❁ ❁

ستة مواضع في القرآن حدثنا فيها ربنا عن خشيته ومخافته بالغيب

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾

ومواضع أخرى كثيرة أضعاف ذلك ذكر فيها الغيب مقترنا بعلمه وبالإيمان به وبضد ذلك من رجم بالغيب أو قذف به إلى آخر ذلك الذكر المتكرر لهذا المعنى

فما الغيب؟

ببساطة هو ضد الشهادة

هو ما يغيب عن نظر الخلق وما لا تحيط به علومهم ولا أفهامهم ووسائل إدراكهم

الغيب الذي لا يعلمه إلا الله

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾

أما المخلوق فالأصل أنه لا يعلمه ولا يدرك كنهه

حتى رسوله ﷺ

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾

هكذا يقولها صريحة وينفي عن نفسه الشريفة إطلاق ذلك العلم

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

فما الخشية بالغيب؟

ولماذا هذا التركيز عليها بهذا القدر والتكرار؟

إنها خشيتك حين تغيب عنك كل الأسماع والأبصار إلا سمعه وبصره

حين تتحول أفعالك وأقوالك إلى غيب بالنسبة لغيرك

حين يستحيل على البشر معرفة حقيقتك ولا إدراك أدق أسرارك

وحين تتمكن ومن الاستخفاء وإقامة أسوار عالية تتوارى خلفها أعمال تستحيي أن تُرى

حينئذ تخشاه

وتعلم أنه يسمع ويرى

تعلم ذلك وتؤمن به رغم أنه غيب!

نعم هذا هو الشق الآخر من تلك الخشية

تخشاه وهو غيب لم تره

تعبده كأنك تراه..

كأنك... لأنك ببساطة لا تراه

لكنك تعلم أنه يراك

تلك الخشية دليل صريح وإثبات منك أنك تؤمن ذلك الإيمان الذي صدر الله به كتابه

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

أنت إذاً عمليا صرت منهم

لم تره وخشيته

ولم يبصرك الناس لكنك أيقنت أنه يبصرك ويسمعك

حينئذ كنت أحد من امتلكوا هذا القلب الرجاع العائد وجاء به

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

فهنيئا لك البشرى بعدها

هنيئا بدخولها

وهنيئا بالمزيد

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾

❁ ❁ ❁

كما البذرة تحتاج تربة صالحة خصبة وسقيا عذبة لتنبت وتزدهر = فإن خروج ثمرة التلاوة وحدوث التذكرة والتأثر بالقرآن كذلك يلزمه وجود قلب حي يتأثر بالموعظة القرآنية وتهز أركانه تلك المعاني المبهرة المبثوثة من خلال الوحي الكريم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾

تأمل الشرط

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾

ذلك هو المحل الصالح لتحقق الذكرى والتربة المناسبة لازدهار الثمرة

أن يوجد القلب..

أو على الأقل أن يحضر

كثيرا ما نقرأ القرآن دون أن نجد له أثرا على قلوبنا أو جوارحنا ودون أن ينعكس ذلك الأثر - إن وُجد - على واقعنا

والسبب هو ببساطة عدم وجود المحل المناسب

لكن فلنعترف..

هذا القلب السليم أو الحاضر المنتبه ليس متوفرا بشكل دائم..

بل هو في الحقيقة من الندرة بمكان!!

فما العمل إذاً؛ إن لم يتوفر هذا النوع من القلوب؟!

وهل على صاحب القلب القاسي - وما أبريء نفسي- أن يفقد الأمل في حدوث التغيير المنشود من خلال القرآن؟

الجواب = لا

الأمل لم يزل موجودا

ثمة طريقة أخرى وسبيل بديل

الله جل وعلى بيَّن هذه الطريقة البديلة التي ينبغي أن يسلك سبيلها من يفتقر للقلب السليم الحيّ وينشده

إنها طريقة الاستماع والمشاهدة

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

تأمل قوله ألقى..

أن تلقي بجارحة سمعك على باب التدبر وأن تقطع كل العلائق السمعية الأخرى حين الاستماع للقرآن..

وأن تشحذ تلك الجارحة بكامل قوتها متشوقا لكل حرف قرآني تتلوه أو يُتلى عليك..

وأن تفعل ذلك جنبا مع انتباه كامل وإيقاظ للذهن الذي يقع على عاتقه الركن الثاني لتلك الطريقة..

المشاهدة!

أن تنصت بأذنك الآيات بينما تغلق عين بصرك وتفتح عين بصيرتك لتشهد الأحداث والوقائع القرآنية كأنها رأي عين

ترى بعين الشهود مصارع الأمم ومهلك الظالمين الصادين عن سبيل الله

وتشهد أحداث القيامة وأهوال النشور ومحطات الآخرة التي تتوالى على سمعك كأنك جزء منها فأنت تدرك أنك ستكون يوما بالفعل جزءا منها!

تتأمل مواقف النبيين وبطولات المرسلين ومنازل الصالحين وكأنك كنت هنالك.. معهم

تحزن لحزنهم وتتهلل أساريرك لفرحهم وتصدع معهم بكلمات الحق التى قذفوها فى وجه الباطل

تبحر مع نوح وتتوكل مع هود وتحطم الأصنام مع إبراهيم وتصبر مع أيوب وتُسبِّح مع داوود وتصدع مع موسى وتثبت مع يوسف وتعبد ربك مع محمد حتى يأتيك اليقين

تنتقل من مشهد إلى آخر ومن قصة إلى أخرى وتدور مع المعانى و الأمثال والمشاهد القرآنية حيث دارت

تلك هي المشاهدة وذلك هو الاستماع وبهما أو بالقلب السليم = يحدث الانتفاع بآيات الذكر الحكيم

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾

هكذا مباشرة

من دون وسطاء وبلا كثير من المقدمات والمتون والحواشي يمكنك التذكير به..

بالقرآن

ليس تقليلا من شأن ما سبق من وسائل معينة على الفهم والتقريب لكن إقرارا بضرورة المباشرة في أحيان ومواضع والاحتياج إلى الاتصال بالمعين نفسه

كثيرًا ما يكون مفتاح شخصية الإنسان وسبيل تغييره - فقط - في التذكير بالقرآن

القرآن وحسب من غير إضافات أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى

رغم ذلك فإن قليلًا من الناس من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية..

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يُخلَّى بينك وبين كلام ربك مباشرة..

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك

وقليل من المربين والموجهين يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة فيجعلون كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاتهم وتذكراتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم ويتجاهلون أن هناك من لا يحتاجون إلا لأن يُعرض القرآن على نفوسهم وتتشرب معانيه أذهانهم

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

سورة الذاريات

﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾

هذه هي الحقيقة التي لم تنتبهوا إليها

ذلك الذي كنتم تتعجلون قطف ثمرته

تتسرعون في مقارفته

تسابقون إلى التلذذ به

ما هو؟

الضمير يعود على أقرب مذكور

وأقرب مذكور هنا = النار التي عليها يفتنون

إذاً فهذ هو المآل وما خلف أستار الزينة

تلك الشهوات المحرمة التي أقبلتم عليها بنهم

تلك الفتن التي غمستم أنفسكم فيها دون وازع من دين أو ضمير

تلك النظرات والهمسات ومعاصي السر والخلوات

تلك اللذات الممنوعة والمتع الملعونة

كل ذلك ليس على ظاهره

ليس جميلا ممتعا كما يبدو

كل ذلك ليس سواها

ليس سوى = نار

نار تُذاق كما تُذاق أسبابها التي كنتم تستعجلون

دوما تتكرر وتتقرر تلك الحقيقة القرآنية

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾

يأكلون نارا

ما يأكلون إلا النار

هذه هي حقيقة الحرام الذي به يتلذذون

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

دوما؛ ذوقوا

ودوما يعود الضمير على الحقيقة التي نتناسها

هذه الأشياء ليست كما تبدو

هي عذاب

نار وسعير

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ولو لم يصح التصور لفسد التعامل مع الأشياء لعدم إدراك كنهها

لذلك كان تصحيح التصورات وبيان حقائق الأشياء ومآلاتها = من أهم وسائل القرآن لتغيير قارئه ومتدبره

أن يعرف المرء المآلات ويدرك أن هذه المآلات هي الحقائق الكبرى وليست تلك القشور الخارجية الزائفة = فذلك انتصار حقيقي للإنسان في معركته مع عدو يعتني جدا بتزيين تلك القشرة وتغيير معالم الأشياء ووصفها ووسمها

والموفق حقا هو من لم يخدعه ذلك التزيين وأدرك تلك الحقائق

حقائق الأشياء

يمنح سائلا ويعين مكروبا بينما عطاؤه يقطر بالمنِّ وينضح بالعلو والشعو بالفوقية والتفضل على الخلق

شتان الفارق بينه وبين من عطاؤه حق يؤديه وكرمه سجية صارت جزءا متأصلا فيه

هذا الأخير لا يمن ولا يؤذي لأنه ببساطة خلع الشعور بالفوقية على بوابة أداء العبودية وتخلص من بقايا العلو حين لم يملأ قلبه إلا شعور الامتنان لصاحب المنة والفضل وحده

عندئذ أدرك أن عليه واجب شكر تلك المنن والنعم = فكان ذلك الحق الذي يؤديه

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾

❁ ❁ ❁

سورة الذاريات استفتحت بالقَسَم وامتلأت عبر آياتها بصنوف من التوكيد والقسم

يقسم ربنا بالريح "الذاريات" وبالسحب "الحاملات" وبالسفن "الجاريات" وبالملائكة "المقسمات" وبالسماء ذات الحبك

يقسم ربنا بما يشاء من خلقه ليؤكد حقائق راسخة تعرضها السورة ويراد لمتدبرها أن يوقن بها

صدق الوعد ووقوع الدين ومشاهد من الدار الآخرة ومصير الخراصين المكذبين وجنات المتقين

كل ذلك يأتي في مفتتح السورة مع ما أقسم به الله من خلقه

لكن عند ذكر الرزق جاء القسم مختلفا

أقسم ربنا بنفسه

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾

قال الحسن بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **قَاتَلَ اللهُ تَعَالَى أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوهُ** »

ويروى أن أعرابيا فُجع بذلك القسم حين سمعه لأول مرة وتسائلا مصدوما عن أولئك الذين بلغ بهم التكذيب مبلغا يقسم الله لهم معه بذاته ليصدقوه

على قول الطبري وغيره أن ذلك القسم خاص بالآية التي قبله وما حوته من تقرير بأن رزقنا في السماء

فلماذا الرزق؟

لماذا هذا الاعتناء بالقسم الخاص بإثبات كونه في السماء وأنه بيد من رفعها سبحانه؟

الحقيقة أن جل الناس وإن أقروا بهذا الأمر نظريا إلا أنهم إقرارهم العملي لا يدانيه

القلق الزائد على الرزق والانشغال المبالغ فيه بطلبه بأي سبيل حل أم حرم والشح به إن جاء والخوف على نقصانه أو ذهابه = كل ذلك يلزمه مثل هذا القسم

لا ليقعدهم عن العمل أن السير في مناكب الأرض ليأكلوا من رزقه كما أمرهم

لكن ليهونوا على أنفسهم ولتطمئن قلوب مزقتها المخاوف والرغبات

وليستبدل القلق على المضمون بهمٍّ على ما لم يُضمن

همِّ الآخرة

نعم.. ضمن الله الرزق من السماء لكنه لم يضمن كونك من أهل الجنة مع

المتقين الذين ذكرهم الله في الآيات السابقة لتلك الآية

فهل تمزق قلبك) لأجل مضمون وتقلق على شيء أقسم لك مولاك أنه موجود في السماء وأن وجوده حق راسخ ينبغي أن توقن به يقينا يشبه يقينك بقدرتك على النطق

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾

هكذا أراد ربك أن يكون يقينك في الرزق

وعلى ذلك بذاته الجليلة؛ أقسم..

❁ ❁ ❁

لعل أسوأ ما في الاستسلام للمعاصي هو ذلك الشعور المقبض بالوحدة والتخلي عن حصون التوفيق والحفظ الإلهي

حين تشعر أنك لم تكن عند مراده منك..

بل على العكس كنت عند ظن عدوك وعدوه الذي أقسم ليغوينهم أجمعين فاستثنى الله عباده المخلصين!

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾

أوقد صدق عليَّ ظنه؟

أوقد أغواني فعلا؟

لوهلة تشعر أنك قد صرت وحدك

أنك قد وُكلت إلى نفسك

حينئذ لا تدري أين تذهب

وكيف تفر وإلى من تلجأ..

عندها يبرز أمامك الحل الوحيد وتدرك الملجأ الذي ليس لك غيره

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾

هذا هو الطريق وحسب

الفرار له واللجوء إليه

فلا ملجأ منه إلا إليه

حينئذ فقط قد يزول ذلك الشعور المقبض

بفرار إليه

بتوبة صادقة

باستغفار نادم يستأذن به المرء ربه على استحياء لينهي وحدته ووحشته وليعود..

ليعود إلى حِماه.

❁ ❁ ❁

مهما قست القلوب وصمت الآذان وغلقت الأسماع والأفهام = فلا ينبغي أن يمنعك ذلك عن التذكير فإن القاعدة الأصلية التي رسخها القرآن أن الذكرى تنفع

﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

صحيح أن من خُصوا بحدوث ذلك الانتفاع بذلك الانتفاع هم المؤمنين إلا

أن ذلك لا يمنع أن يتذكر غيرهم وإن بلغ من القسوة والجفاء أقصى مبلغ

فرعون نفسه لم يتم ابتداء قطع الأمل في أن يتذكر

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

أفتقطع أنت الأمل في المؤمنين أن يتذكروا أو تنفعهم الذكرى؟!

فلتمتثل ولتبذل وسعك

ولتُذَكِّر ولتفعل ما عليك دون أن تكلف نفسك قلقا لم يكلفك به الله

من عليه أن يقلق حقا هو من لم تنفعه أي ذكرى

فإن الذكرى تنفع

تنفع المؤمنين

❁ ❁ ❁

مركزية الدين في حياتك...

ذلك المفهوم والتصور الذي يعد في رأيي حلا جامعا لكثير من إشكاليات التدين والاستقامة

أن يكون الدين هو المركز الذي تنبعث منه تصوراتك، والأصل الذي تُبنى عليه أقوالك وأفعالك، والنواة التي تدور حولها سائر خياراتك وتنبثق منها أهم قراراتك

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

من خلال هذه الآية الجامعة تنبعث تلك المركزية المفترضة والأصل الجامع

إنها العبادة بمفهومها الشامل والذي لا يقتصر على الشعائر وإنما يمتد ليشمل سائر الأقوال والأفعال والأخلاق والمعاملات والسلوكيات

والهموم أيضا

حين أخبر النبي ﷺ أصحابه عن مدة مكث المسيح الدجال في الأرض وأيامه الأربعين والتي منها يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم

= عندها توقف الصحابة عند أمر عجيب ربما لا يكون هو أول ما يتبادر إليه الذهن عندما يروى أمر خارق للطبيعة ومخالف لنواميس الكون المعتادة

يوم كسنة!

الذي يتبادر للذهن قد يكون سؤال عن الكيفية أو الحكمة أو تفاصيل هذا اليوم الطويل وهل يكون ليلا كله أم نهارا كله وهل هذه ظاهرة قد تتكرر أم لها ارتباط بالخوارق المعاصرة للدجال إلى آخر قائمة الأسئلة التي قد يبدو كثير منها منطقيا وبديهيا

لكن الصحابة سألوا عن شيء مختلف تماما

سألوا عما يشغلهم..

عن الهم المركزي الذي كان يملأ صدورهم

عن الشيء الذي يشكل المساحة العظمى من تفكيرهم

يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسَنَة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

أجابهم النبي ﷺ: «**لا، اقدروا له قدره**»

هكذا كان السؤال واضحا

عن الصلاة

عن الطاعة

عن الوسيلة لنيل مرضاة الله

هذا كان الهم المركزي الذي شغل قلوبهم وعقولهم وعنه تفرعت جل أقوالهم و أعمالهم

ستكون هناك استثناءات وغفلات بلا شك؛ لكن حين يظل المقصد واضحا والمركزية موجودة بداخل التصوره والهمِّ والمراد = ستكون العودة سهلة ومتوقعة بإذن الله

❁ ❁ ❁

الأصل عند ذكر الصحبة في القرآن أو السنة أن يكون في معرض الحديث عن الارتباط والملازمة والقرب المباشر

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾

وفي المعارج ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾

كما ترى فيما سبق من مواضع ذكر مادة (ص. ح. ب) وغيرها كثير = ستجد علاقة مباشرة ورفقة معاصرة مكانية وزمانية

لكن في سورة الذاريات جاءت المصاحبة في سياق مختلف

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾

المفسرون على أن أصحابهم هنا هم الهالكون من قبلهم

هم من شابهوهم في الظلم والفساد من الأمم السالفة والتي قد عُذبت

لهؤلاء نصيب من العذاب كما كان لأولئك

كما كان لأصحابهم

الصحبة إذاً لا تستلزم معايشة ومعاصرة ولقاء

السير على الخطى والمشابهة والاشتراك في الصفات قد يؤدي إلى النتيجة نفسها

أبو جهل وأمية بن خلف إذاً ليسوا من دون صحبة وسلف!

إن فرعون وهامان وقارون أصحاب لهم

قوم نوح أصحاب لعاد وثمود

الكافرون والظالمون والمفسدون في كل زمان لهم أصحاب مضوا

ولهم سجلا مما أصابهم

ويوم تقوم الساعة تلتقي أبدانهم كما التقت أرواحهم

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾

سورة الطور

الصبر غالبا يُهَوِّن الأمر على صاحبه

إما أن يكون صبرا شرعيا يحتسب صاحبه ويبتغي به وجه ربه؛ فيهون عليه ذلك البلاء الدنيوي انتظارا لأجر يوفاه بغير حساب في الآخرة

وإما أن يكون صبرا مبعثه الجَلَد وقوة التحمل التي يتمتع بها أو إرادة التحدي التي يصقلها المران ويعطيها تلك الصلابة التي هي أيضا تهون بلاء الدنيا وإن لم يشترط استواؤها مع الأولى في الأجر

هذا في الدنيا

لكن الآخرة لها حسابات أخرى

حين يستوي الصبر والجزع

حين ينقطع العمل ويمتنع وقوع الأجر

حين لا تجدي قوة تحمل أو صلابة مراس

وحين يتلاشى جَلَد الفجار ويتبدد بأس الجبارين ويتحول كل ذلك إلى شعور بكل لحظة من ذلك العذاب الذي أقسم ربنا في أول السورة نفسها أنها لواقع ما له من دافع!

حينئذ لا ينفع الصبر ولا يهوِّن البأس والجَلَد

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾

اصبروا إن شئتم

أو لا تفعلوا

لن يحدث صبركم من عدمه فارقا يذكر

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾

ها هنا يستوي الطرفان

وهاهنا لا منجى من العذاب وذلك لسبب تعرفونه ختمت به الآية

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

هذا عملكم

وهذا جزاء اختياركم

هذه وربي واحدة من أشد كلمات تقريع أهل النار في القرآن ترهيبا

فاللهم سلم...

❁ ❁ ❁

المرء يحب أبناءه ويحمل هم ذريته..

تلك حقيقة فطرية يؤكدها الواقع ويقرها القرآن بشكل واضح

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾

﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

حتى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه لم يكونوا استثناء من تلك القاعدة بل كانوا أيضا يعنون بأمر ذريتهم ويتمنون لهم الخير ويخشون عليهم من كل شر

نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ... الآية

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أكثر من موضع ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

وقال ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

ويعقوب ضرب في ذلك مثلا جليا

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

هكذا في ما سبق وفي مواضع أخرى من القرآن يتبين أن الأصل اعتناء المرء بالذرية إن وجدت والتوق إلى وجودها إن لم توجد.﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

لكن نلاحظ في جل الآيات أن اعتناء الأنبياء ومن سار على نهجهم لم يكن فقط اعتناء دنيويا أو ماديا كما الحال اليوم عند أكثر الخلق

بل كانت الأولوية في الغالب للدين

للصلاح

لرضا الله والنجاة في الآخرة

من هنا كانت آية الطور محورية فاصلة

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾

لابد أن تكون الذرية على نفس النهج لتنجو ولتلحق بهم في ركب الصالحين

لابد أن تتبعهم بإيمان

حين لم يفعل ابن نوح ذلك وخالف نهج أبيه = هلك وأعلن الله أنه لم يعد من أهل نوح

وحين طلب الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن تكون الإمامة في ذريته أيضا = استثنى الله الظالمين ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

هكذا تعلن القاعدة صريحة قاطعة في هذه السورة

﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾

العبرة إذاً ليست بالنسب وإن كان لنبي أو ولي

ليس العهد بالآباء والأجداد

ليس المعيار هو الحسب والأصل

العبرة بالعمل

بالكسب والبذل والسعي

وكل مرتهن بذلك

فإن صدق الخوف على مصير الأبناء وكانت الخشية حقيقية = كان الحرص

على صلاحهم وقوة ديانتهم وكانت الأولوية لغرس قيم الحق والخير العمل والسعي لاكتساب الفضل والخيرية في نفوسهم منذ نعومة أظفارهم وليس فقط الانشغال بالجانب المادي الذي يشكل للأسف جل تفكير الناس وغاية آمالهم ومنتهى أمنياتهم

صلاح ولدك وكسبه وعمله هو معيار نجاته ولحاقه بك ومفتاح اجتماعكما هناك بإذن الله

هناك... في الجنة

❁ ❁ ❁

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾

من الذين قالوا؟

إنهم أهل الجنة حين أقبل بعضهم على بعض

حين تذاكروا خير أعمالهم وأرجى مشاعرهم

كانت هذه إحدى أسباب نجاتهم ورفعتهم وكانت واحدة من أهم المشاعر التي حين وجدت في قلوبهم؛ أمنوا يوم الفزع الأكبر

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾

الإشفاق من هذا العذاب

الهم الذي حملوه

هم الآخرة والإشفاق من عذابها

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾

فيما سبق من الآيات ستجد الكلمة تتكرر باشتقاقتها

كلمة الإشفاق

﴿مُشۡفِقُونَ﴾

﴿مُشۡفِقِينَ﴾

إنها كلمة تلخص الكثير والكثير

تلخص ما يجيش في صدورهم ويعتمل في نفوسهم

ما يجول في خواطرهم وما توجل منه قلوبهم

إن هم الآخرة إذا استقر فعلا في قلب العبد = كفاه الله كل الهموم

أن يستقيم الميزان وأن ندرك حقيقة التفاضل وأن تظهر القيمة الحقيقية للأشياء التي مهما تزينت وتجملت واقتربت وسهلت منالها

ستظل مجرد متاع

ومتاع الدنيا مهما كثر فهو قليل

والآخرة خير وأبقى

فأيهما يستحق أن نحمل نشفق منه وأن نحمل همه؟

هذه النوعية من الآيات تلخص تلك المشاعر التي يعد ترسيخها غرسا لذلك الهم وتلك القيمة

قيمة تعظيم الدار الآخرة

وحمل همها

بل جعله هو الهم الأوحد إذا استطاع المرء

هكذا نصح رسول الله ﷺ

روى ابن ماجة وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من جعل الهموم همّـًا واحداً هم المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك**»

تأمل التوجيه واللفظ المستعمل

الهم

أيضا يتكرر اللفظ فيما روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجَهْ، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن كانتِ الآخرةُ هَمَّه، جَمَع الله له شَمْله، وَجعَلَ غناهُ في قَلْبه، وَأَتَتْه الدُّنيا وهي راغِمة، ومَن كانتِ الدُّنيا هَمَّه، فَرَّقَ الله عليه شَمْله، وجعل فقره بين عَيْنَيْه، ولم يأتِه منَ الدُّنيا إلاَّ ما قدر له**»

وكان من دعائه ﷺ: «**ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**» رواه الترمذي

همُّ الآخرة إذاً يتكرر ذكره في كلام الرسول

يشغله ويبين لمن حوله أهميته

إنه مبدأٌ رَبَّى عليه النَّبي ﷺ صحابتَهُ الكِرام، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يغرس في

قُلُوب أصحابه هذا الهمِّ

كان إذا رأى شيئًا مِن زينة الدُّنيا يُسْمِع أصحابه: «**لبيكَ إنَّ العيشَ عيش الآخرة**».

ولما أهديت له من أحد الملوك جبَّة من ديباج، منسوج فيها الذَّهب، تَعَجَّبَ الصَّحابة مِن لين مَلْمسِها وجمالها؛ فقال لهمُ النَّبي ﷺ أمام هذه الدَّهشة: «**أَتَعْجَبُونَ مِن هذه الجبَّة، فوالله لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مما تَرَوْن**».

تأمل ما يغرسه

ما يوجه القلوب إليه

الجنة

الآخرة

دار البقاء

أن يكون هذا هو الهم والإشفاق

هذا الهمُّ الذي أيقظه يوما مِن منامِه لينادي في الناس: «**يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءتِ الرَّاجفة، تتبعها الرادِفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**».

من أين جاء بهذا الهم والإشفاق بأبي هو وأمي صلوات ربي وسلامه عليه؟

جاء به من المعين الأعظم والذي تكتظ آياته بهذه القيمة

من القرآن

لم يرد اسم الله البَرِّ في كتاب الله إلا في موضع واحد مقترنا بحديث أهل الجنة عن دعائهم وعبادتهم بعد تذاكرهم فضل الله عليهم ووقايته لهم من العذاب

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

وكأن هذا الاقتران بالدعاء الذي يشمل معنى العبادة كما يحمل معنى السؤال والطلب = فيه إشارة إلى معنى الاسم وتجلياته في حق الله

البَرُّ اسْمُ فَاعِلٍ للمَوْصُوفِ بِالبِرِّ ومن يفعله ويتلبس به

والبر هو الإحسان والعطف والعطاء واللطف والإكرام

وهو كذلك صدق الوعد؛ يقال: برَّ بقسمه أي أنفذه وصدق فيه

والمعنيان في حق الله = كمالهما

وأهل الجنة في ذلك الموضع وفي هذا السياق يصيرون أدرى الخلق بهذه التجليات لهذا الاسم الجميل

لقد أحسن إليهم ابتداء بتوفيقهم إلى الهداية

ثم أحسن إليهم بقبول عبادتهم وسماع دعائهم والاستجابة إليهم

ثم أحسن إليهم بالتجاوز عن عيوبهم والصفح عن زلاتهم ومغفرة ذنوبهم

ثم أحسن إليهم بتثبيتهم حتى الممات والختم بالصالحات

ثم أتم إحسانه وعطفه وجزيل عطائه بأن أدخلهم الجنة وأذاقهم صنوف نعيمها وكرامتها

وهو بذلك كله قد صدقهم وعده وأنفذ لهم ما رغبهم فيه

وهم في ذلك الموضع قد أدركوا ذلك وتشربته قلوبهم ووعته عقولهم

فخرجت منهم الكلمة غضة حية وقد عاينوها وأبصروا ثمارها

ويالیتنا ندركها وتتشربها نفوسنا كما فعلوا فتنضح بها قلوبنا لتخرج إلى ألسنتنا بما عاينت في الدنيا من فيض خيره وبره وإحسانه فتشهد بذلك للعالمين

تشهد ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾

هذه الصيغة من الخطاب القرآني الذي فيه حضٌّ للنبي ﷺ على مقابلة إيذاء المشركين وأكاذيبهم وادعاءاتهم الزائفة = بعدم انكسار

بل يقابل ذلك بالمواجهة التي تنضح بروح التحدي والقوة والصلابة

تلك القيم التي تتكرر في مثل هذا السياق القرآني كثيرا وتعد في تصوري فرعا عن العزة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن بدلا من روح الخنوع والفزع أمام جهد أهل الباطل والخوف المفرط من مآلات مكرهم

هم قد مكروا ويمكرون

وسيمكرون...

وليس مكرهم هينا أو يسيرا بل هو مكر الليل والنهار الذي كاد أن تزول منه الجبال

لكن الله ليس بغافل عن هذا المكر وليس بمخلف وعده رسله

إنه عزيز ذو انتقام

من هنا يبرز خطاب التحدي الذي يكثر في القرآن بشكل ملحوظ لا يخفى على متدبر

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ

هكذا كان الأمر للنبي ﷺ في سورة الطور وليرسخ هذه الروح القوية بالله المتوكلة عليه الواثقة بوعده

وليس في هذه السورة وحدها وليس للنبي ﷺ وحده

في سورة التوبة

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

وفي سورة المرسلات

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾

تأمل التحدي الواضح افعلوا ما تشاءون وامكروا مكركم الذي تشتهون فبصدق توكلي ويقيني = لا أخاف ما تمكرون

اعملوا وانتظروا ونحن معكم منتظرون

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

وفي سورة يونس أيضا يتكرر المعنى ويتقرر

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

ومثل ذلك قاله الأنبياء والصالحون في مواجهة مكر أهل الباطل

قالها هود في مواجهة عاد الأولى ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

ثم تعالت وتيرة التحدي إلى أقصى درجاتها في السورة التي سميت باسمه وذلك حين قالت عاد ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾

فكانت إجابته الباهرة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

تأمل المشهد

رجل واحد يقف بمفرده في مواجهة أعتى قوة بشرية في زمانه ويطلب منهم أن يمتطوا أعلى ما في خيلهم ويفعلوا أقصى ما تتفتق عنه أذهانهم

ويجتمعوا

يجتمعوا على الكيد به

كيف بلغ ذلك؟

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

إنه التوكل إذاً

والثقة واليقين اللذان يورثان هذه القوة في مواجهة أهل الباطل

نبي الله شعيب كذلك كانت له مثل تلك الكلمات الواثقة المتوكلة والمتحدية

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾

وفي خضم سخرية قوم نوح من بنائه سفينة في يابسة كانت إجابته المتحدية الواثقة: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين حآجه قومه

﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

وموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما واجه السحرة

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾

وحين بلغه تحديه لفرعون مبلغه فقال ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾

وعندما عاين السحرة وقوع العذاب بهم على يد فرعون ما كانت إجابتهم منكسرة ولا خانعة بل ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ

﴿أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

وهكذا تتواتر في كتاب الله وعبر كلمات النبيين والصديقين تبرز تلك القيمة ويفوح منها عبير العزة واليقين

فمن أين أتى البعض بهذا الكم من الهلع وكيف استحلوا بث الانهزام النفسي والخوف المفرط من مكر أهل الباطل

وكيف عظم قدر المبطلين في النفوس حتى ظن البعض أنهم قد أحاطوا علما وقدرة بالأسباب وأن كل ما حدث ويحدث من من مجريات وأحداث إنما هو بقصد منهم وتدبير ومكر من صنع أيديهم

هذا الظن الذي يفسد على الناس فألهم الحسن ويسرب إلى نفوسهم اليأس من حيث لا يشعرون فينسون في خضم تعظيمهم المستتر للطغاة وانبهارهم الخفي بالمفسدين والمجرمين أن إلها عظيما قديرا يمكر فوق مكرهم وأن مكر أولئك هو يبور وأنهم ما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون وأن الله هو خير الماكرين

ثمة مساحة دقيقة تكمن بين الحذر والتربص والحيطة وبين التعظيم المَرَضي للطغاة والخوف المذموم من المفسدين والمجرمين

هذه المساحة تذوب بسهولة إلا عند أهل العقيدة حيث يعلقون قلوبهم بالله ويعتقدون دوما أن له التصريف والإحاطة بخلقه وأن مبدأ الأمر ومنتهاه بين يديه

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾

تلك الطمأنة القرآنية التي لا أعلم ما هو أجلب للسكينة منها

أن يستشعر العبد رعاية الله وحفظه

أن يرنو بقلبه إلى السماء وهو يعلم أن مولاه يسمع ويرى

أن يملأ نفسه إحساس مختلف برقابة الله

رقابة ذات سياق مغاير للرقابة الحسابية عند المعصية والتجاوز

إنها رقابة العناية والحفظ واللطف والحنو

تلك التي طمأن الله بها أم موسى حين أمرها: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ﴾ ..

عدو يتلقاه؟

مترصده يلقاه؟

نعم... لكن ماذا يضيره في ذلك وهو يصنع على عين الله وبحفظه ورعايته يتولاه

﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾

تأمل عظم المعنى

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾

هل يؤذيه عدو حينئذ أو يتخطفه موج؟

إن موجا كالجبال وطوفان هادر = لم يضرا بعض الألواح والمسامير التي حُمل عليها نوح ومن معه

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾

لكن السر لم يك في الألواح والدسر

كان في رقابة الحفظ و العناية والرعاية

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

إنها كما قلت رقابة مختلفة

رقابة لطيفة يستشعرها من يخلوا بليل مظلم يضيئه بالقربى

بصلاة قيام واستغفار أسحار

حينئذ يستشعر قول مولاه

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

عندها يكون الصبر مختلفا وبقلب آخر

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

إنه قلب يرنو إلى حفظ مولاه ورعايته فلا يملك بعدها إلا التسبيح والتعظيم في كل وقت وعلى كل حال

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

سورة النجم

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾

هذه صفة من صفات المحسنين الذين يجزيهم الله بالحسنى

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾

من أهم صفات أولئك المذكورين أنهم يجتنبون الكبائر

مثل ذلك ورد في سورة الشورى في وصف المؤمنين

وفي سورة النساء جعله الله شرطا لتكفير السيئات وولوج المدخل الكريم

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

يمكنك تسمية ذلك بقاعدة الخطوط الحمراء

لدى المحسنين حدود وأسوار لا يتجاوزونها أبدا

خطوط حمراء لا يقبلون تعديها مطلقا

وإن فعلوا فإن ذلك يكون استثناء كما في تمام الآية محل تدبرنا

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾

ذهب كثير من أهل العلم إلى أن اللمم يقصد به صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

لكن هذا ليس القول الوحيد

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إلا اللمم هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب

وعنه أيضا قال إلا اللمم إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم.

وعن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه

الأمر إذاً إن وقع فهو استثناء مؤقت يعود المرء بعده إلى رحاب التوبة

لكن يبقى الأصل وجود تلك الخطوط الحمراء

الحدود والحرمات

حمى الملك الذي ينبغي أن يتقى ولا يحام حوله

لكن كيف تدرك هذه الحدود وترسم تلك الخطوط الفاصلة؟

ولماذا تحديدا تعد أشياء من الكبائر وأخرى أصغر؟

للعلماء في ذلك مذاهب شتى

منهم من جعل الكبائر هي تلك المرتبطة بعقوبة عاجلة أو حد دنيوي كالزنا والسرقة والقذف

ومنهم من عد من الكبائر كل معصية نزل الوحي بأن مآل مقترفها إلى العذاب الأخروي

ومنهم من قصرها على السبع الموبقات

ومنهم من ضم إليها كل ما ارتبط بنفي الإيمان أو كماله أو الطرد من الانتساب للأمة

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر

والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن = من لا يأمن جاره بوائقه

هذه طائفة

أيضا هناك طائفة أخرى من الأحاديث وهي ما احتوت «**ليس منا**» أو «**ليس المؤمن**»

«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء»

«ليس منا من دعا إلى عصبية»

«لَيْسَ مِنّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعا بِدَعْوَى الجاهِلِيَّةِ»

«ليس منا من غش مسلماً أو ضره »

«من غش فليس منا »

«ليس منا من عمل بسنة غيرنا»

«ليس منا من تشبه بالنساء من الرجال»

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا»

«ليس مني ذو حسد»

«ليس منا من تطير »

«ليس منا من خبب امرأةً على زوجها »

وغير ذلك كثير على نفس النسق

أيضا هنالك ما صرح النبي بشكل مباشر أنه من الكبائر بل من أكبر الكبائر ومن ذلك أن يسب الرجل أباه وأمه بأن يسب آباء الآخرين وأمهاتهم

ومثل ذلك في الترك

هناك خطوط حمراء في ترك العبادات الرئيسية أيضا

الفروض والواجبات بترتيبها وعلى رأسها أركان الإسلام

وعماد ذلك الصلاة التي هي العهد والفيصل بين الرجل وبين الكفر كما نص النبي ﷺ على ذلك

كل ما سبق وما كان على شاكلته يعده أهل الإحسان والاستقامة والالتزام = خطوطا حمراء وحدودا فاصلة لا يقربونها إلا استثناء كما بينا

وإن وقع ذلك فبشروط لكي تظل تلك الاستثناءات من اللمم

إن وقوع شيء من ذلك لدى الصالحين يكون غالبا لضعف غلبهم أو لزلل وغفلة انتابتهم أو لقلة عزم كما وقع من أبيهم الأول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾

المهم ألا يكون ذلك الاستثناء لجحود بفريضة محكمة أو إنكار لحكم ثابت أو استحلال لحرام معلوم

وألا يصحبه اجتراء أو يقترن به استخفاف واستهانة ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾

وأيضا من المهم ألا يبرر الخلل إن حدث أو يراوغ ويعلل الخطيئة إن وقعت

وأخيرا أن يظل الأمر استثناء

ألا يوجد الإصرار حتى لو تكرر السقوط

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾

من هؤلاء الذين ذكروا الله عند المعصية أو بعدها مباشرة

إن اللفظ الذي أطلق عليهم ابتداء ليس لفظا مرتبط بالمعصية أو الفاحشة

ليسوا مجرمين أو فاجرين أو فاسقين

إنهم المتقون

الآيات تتحدث عن هذا الصنف الذي لأجله أُعدت الجنة التي عرضها السماوات والأرض

تتحدث عن صفاتهم وخصائصهم

عن إنفاقهم وجودهم في السراء والضراء وعن كظمهم غيظهم وعفوهم وإحسانهم

ثم تتحدث عن معاصيهم

نعم... إنهم يعصون الله أحيانا

بل يقع بعضهم فيما سماه الوحي فواحش

رغم ذلك هم متقون

إنهم من بني آدم وكل بني آدم يخطئون ويزلون ويعصون إلا من عصم الله

لكن الفارق الذي ميزهم وجعل وقوعهم في المعصية مختلفا عن طريقة الفاسقين والفاجرين والمجرمين هو تلك اللحظة التي يستفيقون فيها

لحظة الذكر

"ذَكَرُوا اللهَ...

ثم جاء بعده الاستغفار

ولأجل ذلك الرجوع السريع والأوبة العاجلة ظلوا من المتقين رغم وقوعهم

في الفاحشة

لأنهم لم يصروا

تابوا وأنابوا واستغفروا واعترفوا ولم يستنكفوا أو يماروا ويستكبروا

عندئذ يظل الاستثناء = لمم

ويظل الرجاء فيما بشر به رب العالمين بعد ذكر هذا اللمم

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾

❁ ❁ ❁

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾

هذه الآفة التي يندر أن يسلم منها مخلوق

الآفة التي تسبب في طرد إبليس حين قال ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ و كانت العلة الكبرى التي صدت فرعون عن الهدى ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

وهي الآفة نفسها التي حالت بين قارون وبين قبول نصح الناصحين أن يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة فكانت إجابته: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾

وهي ذات الفتنة التي أودت بصاحب الجنتين وأورثته العلو والاستكبار في الدنيا: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ثم أدت إلى تقوله على الله في الآخرة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

وهي التي منعت بني إسرائيل من الإذعان لنبيهم وقبول طالوت مَلِكًا: ﴿أَنَّىٰ

﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾

أنا خير

أنا أكثر

نحن أحق

نحن أبناء الله وأحباؤه

تختلف الصيغ والآفة واحدة والمركز هو نفسه في كل مرة

أنا..

أن تنبعث تلك الريح المنتنة من مستنقع الكفر فهذا قد لا يستغرب

لكنها للأسف ليست آفة حصرية على الكافرين والمشركين

من المؤمنين من يعاني من الآفة نفسها وبشكل أخطر

إنه يزكي نفسه ليس فقط على الخلق ولكن على الخالق

هذه والله من أعجب الآفات حين تختلط بأصل الإيمان

الله أعلم بنا وبدخائل نفوسنا التي تغيب حتى عنا

فكيف نزكي أنفسنا عليه؟

وكيف نتصور أصلا أن هذا ينفع أو يغير من الحقيقة شيئا؟

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

الحي لا تؤمن عليه الفتنة

والمآل والمصير ومكنون الصدور وما تحويه القلوب كل ذلك = غيب لا يعلمه إلا الله

وكم من أناس كانوا على أعلى درجات التزكية، ثم نكسوا على رؤوسهم، وضلوا وأضلوا وفُتِنوا وفَتنوا غيرهم، وما "بلعام" الذي آتاه الله آياته لكنه أخلد إلى الأرض وانتكس، أو برصيصا الذي كان منقطعًا للعبادة ثم زنى وارتكس، وغيرهما مما ليس عن الأذهان ببعيد.

فلا أدري صدقا من أين يأتي هؤلاء المزكون أنفسهم بهذه الأطنان من التزكية للنفس وللغير والتي يوزعونها يمنة ويسرة ويكأنهم يوزعون من تركة أبيهم

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

معنى بدهى ومنطقى وأصل إسلامى يفترض أن يعلمه الجميع، ومسلمة من مسلمات ديننا تقطع بأن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه

لقد لخص النبى ﷺ ذلك المعنى فى جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون، وجاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «**واللهِ ما أدرى – وأنا رسولُ الله – ما يُفعَلُ بى ولا بِكم**»،

ورغم ما له من مبشرات ومنزلة عند ربه، إلا أنه اختار التعميم لترك الأمر كله لله، وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق فى أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبى يفاجئهم بأنه ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التى من المفترض كما قلت آنفا أنها بديهية ومنطقية إلا أن الرضا التام عن النفس وتزكيتها على الله والتصور الراسخ أننا كما يصف المثل المصري "مغسل وضامن جنة." = يحول كل ذلك بيننا وبين إدراك تلك البديهية

إن خطورة التزكية بخلاف أنها تقول على الله فهي في كونها تمنع عن المرء إرادة التغيير للأفضل ناهيك عن فعل التغيير نفسه

هذا الضامن للجنة الذي لا يخطيء أبدا = هل سيحتاج يوما للتغيير والإصلاح؟

وإن جاءه داعي الهدى يوما؛ فهل سيقبله؟

وهل هناك هداية وصلاح أكثر مما هو عليه الآن؟

إن النظر إلى النفس بعين الكمال يمنع القلب عن رؤية أي عيب أو مرض ومن ثم يحول بينها وبين العلاج

وهو أيضا منبع الكبر والعجب وهما كما هو معلوم = من المهلكات

إن أفضل الخلق على الإطلاق لم يزكوا أنفسهم بهذا الشكل الذي يفعله البعض اليوم

الأنبياء أنفسهم كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات، واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ بالشيء الذى يغيب عن الأذهان

لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثانى الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين

كما تضرع نبينا لمقلب القلوب كى يثبته على دينه.

ولقد علَّم رسول الله ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاءً يقوله في صلاته، فقال له: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**» (متفق عليه).

تأمل كلمات الدعاء لتعلم ما يغرسه النبي ﷺ في نفس من يدعو به

تواضع.. إخبات.. افتقار..

كل ذلك وغيره ستجده

لكن لن تجد تزكية النفس

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم خير من مشى على الأرض بعد الأنبياء = كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة

ولم يكن منهم أحد يقول إيماني على إيمان جبريل وميكائيل

لقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينادي حذيفة فيقول: "أنشدك بالله الذي لا إله إلا هو، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ من المنافقين"

وعندما جُرح عمر جُرحه الذي نال به الشهادة في سبيل الله وفي حرم رسول الله ﷺ زاره ابن عباس يعوده فوجده يبكي وهو يأمر ابنه عبد الله أن يضع له خده على الأرض، وهو يقول: "يا ليتني كنت حيضة حاضتها أمي، ليتني خرجت من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي"، فقال: ألم تشهد بدراً؟ ألم تبايع تحت الشجرة؟ ألم يشهد لك رسول الله ﷺ بالجنة؟

فقال عمر: "لعل ذلك على شرطٍ لم يقع" ويكررها باكيا

وكان قيس بن عاصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أوفر الناس حلما وعقلا وسخاء، قال له أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: صف لنا نفسك، فقال: أمَّا في الجاهلية فما هممت بملامة، ولا حِمْتُ على تهمة، ولم أُرَ إلا في خيلٍ مغيرة، أو نادي عشيرة، أو حامي جريرة، وأما في الإسلام فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فأُعجب أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بذلك.

فيا أيها المزكي لنفسك ولغيرك هوِّنْ عليك، واعرف قدرك، فما نحن إلا عباد لله، لا نملك لأنفسنا شيئًا، ولولا أن يثبتنا الله ويتغمدنا برحمته ويكلؤنا بفضله ما زكى منا أحد أبدا

فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

❁ ❁ ❁

﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾

تلك الكلمة القصيرة في مبناها العظيمة في معناها = كانت دوما تستوقفني في سيرة نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أي شرف هذا وأي فضل!

أن يقال عنك مثل هذه الكلمة

أن تكون تلك شهادة الملك الحق عليك

وَفَّىٰ

قد وفيت يا إبراهيم

أديت كل ما عليك

نفذت كل ما طُلب منك أصولا وفروعا

مهما كان صعبا أو ثقيلا على نفسك

ابتليت بكلمات فأتممتهن

وهذه كلمة أخرى تضم إلى سيرتك العطرة

الإتمام إلى جوار الوفاء

الإجابة النموذجية عند كل اختبار مهما كانت درجة صعوبته

الدرجة النهائية في سائر الامتحانات

خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن

اترك ولدك وامرأتك في واد غير ذي زرع

ارفع القواعد من البيت مع ولدك

أذن في الناس بالحج وعلى الله البلاغ

اذبح ولدك وقد بلغ معك السعي

اختتن وانت ابن ثمانين عاما

تتنوع الأوامر والمطالب والابتلاءات

لكن الإجابة كانت دوما واحدة

الوفاء التام

الامتثال الكامل

الاستسلام المطلق

حسنا... هو شأن مبهر حق

لكن إليك المفاجأة

أنا وأنت أيضا مخاطبون بهذا الاستيفاء والإتمام وأخذ ما أوتينا بقوة

وكما طُلب الوفاء من بني إسرائيل

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾

طلب كذلك من قوم شعيب

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾

و من سائر المؤمنين ومع سائر العهود والعقود والمكاييل = تأتي المطالبة بالوفاء

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾

نحن إذاً مخاطبون بهذا المقصد

الوفاء والاستيفاء والإتمام

ربما لن نحصي

وربما لا ننال شرف الاستبشار بها في الدنيا بمثل تلك الشهادة الربانية الباهرة التي قيلت في إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

لكن هذا لا يمنع أن نسعى إليها ونلتمس تحقيقها لعلنا ننالها هنالك في الآخرة

حيث الأجر العظيم

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

❁ ❁ ❁

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

تلك القاعدة القرآنية التي تكررت بنفس اللفظ خمس مرات في كتاب الله

قاعدة: الحساب مرتبط بالعمل ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته = صار يغيب عن أذهان الكثيرين

من لا يفقهون ذلك هم للأسف حمقى جهال مهما تنكر آحادهم بقناع نخبوي أو تدثرت بدثار المثقفة ما دام قد انحدرا لأسلوب التعيير التعميمي والسباب الجمعي لكل من شابه المخطيء في صفة أو شكل أو نسب

إن حماقة أولئك الذين يعتمدون خطاب الجمع والتعميم ظاهرة وظلمهم بيِّنٌ لكل ذي لب

أولئك الذين يفضلون ثقافة السلة الواحدة التي هي ثقافة مريحة بلا شك...

لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق أحدهم شيئا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص)

ولئن ذكرته بألا يزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وأنه "لا تكسب كل نفس إلا عليها" وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وأن رسول الله ﷺ قال «**إن أعظمَ الناسِ فريةً الشاعرُ يَهجو القبيلةَ بأسرِها**» إلى آخر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل = فإن تذكيرك هذا سيصطدم بحواجز مصمتة وضعها على عينيه صاحب هذا النمط التعميمي المقيت ومنتهج مبدأ السيئة تعم والعقوبة على المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون عقولهم وأمروها بالنظر والتأمل في مآل تلك الطريقة = لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك على سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلى بكاء حين يكتشفوا مدى الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف أنه بمنطقهم سيحاسب كل أسمر على خطيئة من يشاركه لونه وكيف سيعاقب كل أشقر على جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا لا يُلام السمين على كل ذنب اقترفه سمين مثله

مشهد هزلي هو؛ لكن نفس النسق والقياس يحدث يوميا من هؤلاء التعميميين حين يتهمون أحدا بجريرة شبيه أو يأخذون بريئا بذنب نسيب

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجما مخالفه بصيغة الجمع قائلا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء ذلك النمط وأتباع ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة

ذلك المبدأ الذي حذر منه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا من أخيهم بنيامين فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾

وأيضا قاله ذو القرنين حين استنجد به أقوام ليعاقب ظالميهم فقال ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾

فقط من ظلم..

المنصفون في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان

بل يفصلون ويميزون ويفرقون بين الصالح والطالح والمحسن والمسىء ويرفعون دوما ذلك الشعار القرآني الجليل ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾

هذا هو الأصل والقاعدة الشرعية الواضحة

حتى على مستوى الأعراف البشرية الطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة على التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن رفض ذلك المبدأ هو الأصل

حتى المنطق الشعبى البسيط الذى يظهر من الأمثال و الحكم العامية لا يرضى بذلك فتجد أدبيات لطيفة ترفض ثقافة التعميم مثل قولهم "صوابعك مش زى بعضيها" و" كل واحد متعلق من عرقوبه"

بل حتى الحشرات!!

"فهلا كانت نملة واحدة"

كانت تلك معتبة ربانية وجهها الله جَلَّوَعَلَا لأحد أحب خلقه إليه

وجهها لنبي من أنبيائه!

القصة بتمامها وتفاصيلها ذكرها النبي ﷺ وأورد رواياتها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما

وتدور أحداثها في زمان سابق لعصر رسولنا حيث نزَل نبيٌّ منَ الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ، فلدَغَتْه نملةٌ، فأمَر بجهازِه فأُخرِج من تحتِها، ثم أمَر بقرية النمل فأُحرِقت بالنارِ

هنا صدرت المعتبة الربانية ونزل الوحي الإلهي يلوم ذلك النبي على تلك العقوبة الشاملة قائلا: «**أحرقت أمة من الأمم تسبح الله**» ثم ختمت المعتبة بتلك الجملة التي صدَّرت بها مقالي:

فهلا نملة واحدة

أما كان يكفيك أن تعاقب تلك النملة التي آذتك بدلا من أن تعمم عقوبتك على سائر جنسها؟!

هو سؤال استنكاري مختصر يبين قاعدة عظيمة كثر ذكرها في الكتاب والسنة كما بينت

قاعدة تضيء بالعدل وتسمو بالإنصاف وتتألق بالحكمة المفتقدة بين كثير من الناس مع بعضهم البعض وليس مع مجرد نملة

لو وقع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم = فلا تقع المحاسبة والمسؤولية إلا على مقترفه ولا تكون العقوبة إلا للنملة الشاردة لا لقريتها كلها

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

هذا الإحباط الذي تشعر به أحيانا حين لا تشهد ثمرة أعمالك عاجلا

ذاك الإحساس بانعدام الجدوى الذي تجده حين تقابل أفعالك بالجحود فضلا عن قلة الشكر أو انعدامه

عندئذ قد تظن لوهلة أن كل سعيك أو جله ذهب هباءً تذروه رياح النكران

لكن إحباطك هذا سيتبدد وينقلب إلى حسن ظن ورغبة وأمل حين تتذكر أن سعيك إن كان خالصا صادقا = لم يتبخر ولم يضع بغض النظر عن النتائج

سعيك سوف يُرى

وسوف تُجزى به

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾

سورة القمر

تلك اللحظة التي تنقطع فيها أسباب الدنيا وتغيب عنك أثناءها كل الحيل وتشعر أنك قد صرت مغلوبا منكسرا

عندئذ يبرز أعظم سبيل وتندفع إلى قلبك ولسانك أقوى وسيلة

تلك التي لما سلكها نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تبدل الحال وتغير المآل

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ ﴾

كانت هذه هي البداية

أن يعترف بضعفه

أن يقر بفقره

أن يستشعر حقا انكساره وافتقاره

يكون ذلك قبل الطلب

فَانْتَصِرْ

هذه هو الدعاء

لكن بين يديه؛ كان الافتقار والانكسار

وكذلك دأب الأنبياء والصالحين في دعائهم

يفتقرون وينكسرون أولا

يتبرأون من حولهم وقوتهم ابتداءً

يعترفون قبل كل شيء بأنهم لا يستطيعون شيئا دون توفيقه وتسديده

موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعدما تولى إلى الظل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل أن يطلب الذرية قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾

أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اكتفى بذكر حاله والثناء على من يقدر على رفعه عنه: أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين

هكذا كان هديهم وسنتهم

وكذلك كانت الإجابة بعد انكسارهم واعترافهم مبهرة مذهلة تبدل الحال وتغير المآل

إجابة لا تختلف كثيرا عن تلك التي قوبل بها نكسار نوح وتضرعه الذي تبعه مباشرة اهتزاز كوني لم ير العالم مثله

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾

طوفان هادر وأرض تتفجر بالماء وأمواج كالجبال

وكل ذلك لأن عبدا مغلوبا لمولاه انكسر

وقال فَانْتَصِرْ

فانتصَر..

الموضع الوحيد الذي ورد فيه لفظ﴿دُسُرٍ﴾ في كتاب الله هو ما جاء تعبيرا عن مكونات سفينة نوح في سورة القمر

إنه موضع إجابة دعاء

بل استنصار

بعد أن دعا نوح:إني مغلوب فانتصر وكانت الإجابة تغيرات كونية هائلة لم تبق من الكافرين ديَّارا = يأتي الإنجاء للعبد الصالح ومن معه

لقد ركب السفينة التي صنعها

لكن هل هي من أنجته؟

هل هي من حملته

إنها مجرد ألواح خشبية

ودُسُر

مسامير ثبتت بها تلك الألواح

وقيل هي الأضلاع التي تشكل أركانها

وقيل هو صدرها الذي يضرب به الموج

لقد عبر المولى جَلَّوَعَلَا هنا بالصفة واستعاض بها عن الموصوف وهو الفلك

وها هنا دلالة ينبغي الانتباه إليها

هذه السفينة هي مجرد ألواح وقوائم وبعض الحديد أخشاب ومسامير

هل مثل ذلك هو ما يصمد أمام أعتى طوفان واجتياح موج عرفته الدنيا؟

هل مثل ذلك ما يحمل نواة العالم الجديد وينقذ الأجناس البشرية وغير

البشرية؟

الإجابة: لا

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾

الله هو من يحملها ويحملكم عليها وهو الذي ينجيكم في البر والبحر

إن موجا كالجبال وطوفان هادر = لن تصمد أمامهما بعض الألواح والمسامير

لكن السر لم يك في الألواح والدسر

كان في رقابة الحفظ و العناية والرعاية

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

هي إذاً حين تجري بكم في هذا البحر الثائر وتحت هذا المطر الهادر لا يكون ذلك لعظمة الألواح ولا لقوة صنع المسامير لكنها العناية

الحفظ والرعاية

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾

تأمل اللفظ مرة أخرى

بأعيننا

تكرر هذا اللفظ في شأن سفينة نوح في موضعين بخلاف هذا الموضع

منذ بداية الصنع كانت الأمر في سورة هود ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾

وكذلك في سورة المؤمنون ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾

الصناعة والتأسيس كان منذ البداية = بمرأى منا

وبوحي منا وتعليم

ثم كان الجريان والصمود والحمل أيضا بأعيننا

نفس ما طمأن به الله رسوله ﷺ ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾

إنها تلك الطمأنة القرآنية التي تحدثنا عنها من قبل

نفس ما عومل به موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾

تأمل عظم المعنى ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾

هل يؤذيه عدو حينئذ أو يتخطفه موج؟

هي رقابة من نوع مختلف

أن يستشعر العبد رعاية الله وحفظه

أن يرنو بقلبه إلى السماء وهو يعلم أن مولاه يسمع ويرى

أن يملأ نفسه إحساس مختلف بتلك الرقابة الربانية

رقابة ذات سياق مغاير للرقابة الحسابية عند المعصية والتجاوز

إنها رقابة العناية والحفظ واللطف والحنو

رقابة بها تُحمل

وبرحمة صاحبها = تنجو

وليس بالألواح

ولا الدُسر

منذ ما يقرب من عشرين عاما وفي منتصف سني دراستي الجامعية بدأت علاقتي بالمسجد أو بالتدين بشكل عام

قبلها للأسف كنت بعيدا جدا عن ذلك الطريق وعن أهم أركانه وهو في اعتقادي = القرآن

بدأت علاقتي بالقرآن بجلسة تلاوة يومية في مسجد صغير يحرص رواده بعد كل صلاة صبح على إقامتها

لم يكن فيهم متخصص أو قاريء محنك لكنهم كانوا يجيدون التلاوة إلى حد لا بأس به وكان أتقنهم يحرص على تصحيح تلاوة الآخرين بحسب مستوياتهم

حين بدأت لأول مرة وأنا من كنت أظن نفسي مثقفا مطلعا كثير القراءة جدا وقد كانت تلك هوايتي المفضلة لكنها للأسف كانت قراءة في كل شيء إلا في كتاب الله

قلت لنفسي ساعتها حين شرعت في التلاوة وما الفارق؟

فلأحسن صوتي بعض الشيء والأمر بسيط ولا فارق بينه وبين باقي القراءات التي أجيد نحوها وصرفها بشكل لا بأس به

بدأت في الترتيل وكانت المفاجأة

أو إن شئت فقل المهزلة

لا يوجد تقريبا حركة صحيحة ولا حرف يقوم بذاته قياما سليما فضلا عن مسافات شاسعة بين تلاوتي وبين ما عرفت بعد ذلك أن اسمه تجويد

من كثرة الأخطاء لم يعد من على رأس المقرأة يردني إلا فيما يغير المعنى أو يفسده

كنت يومها في غاية الحرج وبين الحضور بين يصغرني بكثير ويقرأ بشكل رائع ومنهم من تعليمه متوسط أو ليس متعلما أصلا ورغم ذلك يقرأ أفضل مني بمراحل بل لا يصح أن يقارن بي أصلا

لكنهم كانوا في منتهى الرقي

لم يسخر مني أحد منهم بل ولم تتحول ابتساماتهم المشفقة على هلعي وخوفي من إتمام القراءة إلى ابتسامات تشفي أو علو

كانوا في منتهى الأدب والحرص على تهدئة روعي وطمأنتي أن ما أنا فيه أمر عادي لأني لم أتعلم قواعد التلاوة وأن ذلك سيأتي تدريجيا المهم أن أستمر

لا أنسى ما بشرني به أحدهم حين أخبرني أن لي أجرين وليس أجرا واحدا ونبأني بحديث النبي ﷺ في صحيح مسلم «**الماهرُ بالقرآن مع السفرةِ الكرامِ البرَرَةِ. والذي يقرأ القرآنَ ويتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجرانِ. وفي روايةٍ: والذي يقرأُ وهو يشتدُّ عليه له أجران**»

لكن ما نشط همتي وأعانني حقا على الصبر والمصابرة كانت تلك الآية التي قرأها عليّ فاضل منهم وأخبرني أنها تكررت أربع مرات في سورة القمر

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

القرآن ميسر إذاً

الأمر ليس صعبا كما حاول الشيطان أن يهييء لي وكاد ينجح في تثبيطي عن الإكمال والاستمرار

القرآن ميسر بنص متكرر في القرآن

بشهادة من هو كلامه جَلَّوَعَلَا هو سبحانه وتعالى يشهد أن كلامه ميسر للذكر

ثمة شرط واحد لكي ينتفع المرء بهذا اليسر الموعود

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

هل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟

هل من منزجر عما فيه من النواهي ومسارع إلى ما فيه من خيرات؟

هل من طالب ادِّكار وذكرى = فيعان عليه؟

الفكرة في الطالب إذاً وليس المطلوب

وكالعادة الصدق هو المعيار

إذاً فلهذا لم أجد ذلك التيسير ابتداءً..

المشكلة لم تكن في التلاوة نفسها ولا في قواعد كنت أذهل حين أخطيء فيها بهذا الكم بينما أنا أعرفها ولا أخطيء فيها عند أي قراءة أخرى

المشكلة كانت فيّ أنا..

لم أكن مدَّكرا

لم أصدق بعد وأنا لازلت بين غمرات الغفلات والأهواء

أتذكر في ذلك اليوم كنت للأسف لم أزل مقيما على بعض المعاصي وقررت أنه لا يليق بطالب قرآن وادِّكار أن يقترفها أو على الأقل أن يصر عليها

بفضل الله قررت في ذلك اليوم الإقلاع عنها بهذه النية

طلب القرآن

لم يمر شهر بفضل الله إلا وقد تغير الحال وتحقق الوعد

أحد من كان معنا في بداية تعتعتي المحرجة غاب شهرا ثم عاد للمقرأة وجاء

دوري

تحولت ابتسامة الشفقة والمواساة إلى ابتسامة سرور وفرح يمتزج بها الاندهاش وهو يستمع إلى تلاوة معقولة لم تعد تقطعها تصحيحات المسؤول عن المقرأة

ماذا فعلت؟

كيف في هذه الفترة القصيرة؟

دهشته المتسائلة لم تدم كثيرا فقد ذكرته بالآية التي صنعت الفارق

الحق أنني لم أفعل شيئا ولا غيري فعل

يا صديق التيسير ذاتي فيه

والإعانة وعد من المتكلم به سبحانه

كل ما عليك فقط أن تطلب

وأن تذَّكر

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

❁ ❁ ❁

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾

هذه كانت دوما المشكلة لدى هؤلاء

من بيننا..

هكذا قالتها ثمود عن صالح

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾

هو مجرد بشر ولا مزية له تفضله عنا

فلماذا هو؟

لماذا يختص بالنبوة وتأتيه الرسالة ويحظى بالأفضلية من دوننا؟

نحن هنا

ونحن أحق

نفس ما قال بنو إسرائيل عن طالوت حين اختير ملكا عليهم

﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾

هذه هي..

نحن..

أنا..

الملك مطلوب بشرط أن يكون لي

القائد ضرورة لكن المهم ألا يكون غيري

ابعث لنا ملكا على أن يكون هذا الملك هو أنا..

هذا هو الشرط

وذاك هو الغرض

فإن لم يكن الملك من نصيبي والإمارة من حظي وقسمي = فلا..

هو لا يستحق مكانته

لا يكفي لمليء تلك الصدارة التي رُزقها

للأسف كثير من الإشكالات الواقعة مع أصحاب الفضل وكثير من النقد الموجه لمتصدر = يحوي ذلك المقصد من دون أن يشعر صاحبه

الحقد والحسد

وهذان هما الذان سيطرا على علاقة بني إسرائيل بغيرهم ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

لقد كان بنو إسرائيل هم من طالبوا بأن يبعث الله لهم ملكا

ثم كان رفض ملكه هو رد الفعل المبدئي لذلك الابتعاث

هذا كان السبب الحقيقي القابع خلف رفضهم وليس فقط قلة ماله أو ضيق عيشه كما زعموا

إنه الحقد والحسد الناجم عن شهوة الملك التي كانت هي الدافع وراء مطالبتهم بابتعاث ملك

ابعث لنا ملكا على أن يكون هذا الملك هو أنا..

هذا هو الشرط

فإن لم يكن الملك من نصيبي والإمارة من حظي وقسمي = فهو الحسد إذن!

ثم التشويه والافتراء

وهذا ما فعلته ثمود أيضا بعد بيان السبب من الرفض

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾

هكذا ألقيت التهمة بكل فجاجة

رجل موقر اعترفوا من قبل أنه كان فيهم مرجوا قبل هذا ثم يقولون عنه ذلك

كذاب

صيغة المبالغة من كاذب

وأَشِرٌ؟!

مجاوز حد الكذب متكبر مختال معجب بنفسه ينسب لها ما ليس فيها؟

كل ذلك في صالح

وكيف عرفتم؟

وأي كذب عليه لاحظتم؟

ومتى وأين وكيف؟

كل هذه الأسئلة لن تجد إجابة لدى من قرر ترجمة حقده وحسده إلى تلك الخطوة المعتادة

الافتراء

ذلك الذي لا حدود له اليوم

لكن ثمة غد ولله الحمد

وفي ذلك الغد سيعلم كل مفترٍ حقيقة ومآل افترائه

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾

﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

هذه البشارة القرآنية تلتها مباشرة تفصيلة مهمة يغفل أكثر المتعجلين عنها

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

التأجيل وارد إذاً

والاحتمالان قائمان

أن ترى

أو أن يرى غيرك و ألا تعيش أنت.. لترى

أو حتى أن يكون الموعد هنالك

في الآخرة

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾

هذه بعض تفاصيل الهزيمة الكبرى لهؤلاء في ذلك الموعد

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

إن الرؤية واقعة لا محالة والوعود صادقة والجمع سيهزم كما هُزم من سبقه

التصديق ليس خاضعا للاحتمال

التخيير فقط بين شهود ذلك في الدنيا أم الآخرة

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾

لقد أدركت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا شيئا من الوعود بين المؤمنين لكنها ماتت في حصار شِعب أبي طالب ولم تشهد أي فتح أو نصر

ومات مصعب وحمزة في أُحد دون أن يريا تمكينا أو فتحا لمكة

مع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتى إدراكه أو الممات

وهكذا تعامل الوعود الربانية

يقين وتصديق بغير اشتراط أو تكلف تعيين

وهذا اليقين هو الذين يهون به الله على المرء مصائب الحياة ويعينه على تقلبات الأحداث ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون استعجال الثمرة أو التململ أثناء طريقها

وإن تأخرت

لقد قيل أن ابتلاء أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دام ثمانية عشر عاما حتى جاء الفتح وكشف الله ما به من ضر

وقيل أن افتراق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أبيه جاوز الأربعين عاما حتى بلغ أشده

ثم جاء الفتح و كان اللقاء وجمع الله شملهما

وقيل أن أعواما مرت حتى استجاب الله دعاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على فرعون وقومه وطمس على أموالهم وشدد عليهم وأذاقهم العذاب الأليم

وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين

ومكث المسجد الأقصى في الأسر عشرات السنين

حتى جاء الفتح و حُرر بإذن الله

إن فتح الله يأتي متى شاء وكيف شاء وإن طال الزمان واستيأس الناس فإنه يفتح في النهاية

لقد مكث نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما

مئات الأعوام يتعرض للسخرية والإهانة والتكذيب ومع ذلك يكمل دون تململ أو تأفف أو استعجال

قرون تمضي عليه وهو يعمل دون كلل حتى فتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرت الأرض عيونا والتقى الماء على أمر قد قدر

وفتح الله للمغلوب

وانتصر

إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا رجلا ورجلين ومنهم من يأتي ليس معه أحد

ومع ذلك التصديق كما هو واليقين ثابت والعمل مستمر

اليقين هو الذي يعين المرء على كل عمل من أعمال الدين لأنه يثق أن هناك ثمرة إن لم يدركها في الدنيا فسيدركها غيره وسيدرك هو ثمرة الأخرى

وهي خير وأبقى

من هنا إن قامت القيامة وفي يده فسيلة فسيغرسها

لن يرى ثمرتها

ولكنه سيغرسها

لأنه مكلف بالعمل وليس باستعجال الثمرة

وهو موقنٌ أن ثمة وعد

وأن وعد الله حق وأنه لا يخلف الله وعده

المهم أن يوقن عبده ويثبت على الحق ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك أو الاستعجال

فالميعاد غيب مطلق لا يعلمه إلا الله بينما الوعد حق قطعي وقول إلهي ومن أصدق من الله قيلا

أن يصبر العبد ولا يتقول على ربه بأن يحدد ويشترط أو يسمي أجلا لم يسمه الله

وألا يستعجل

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾

❁ ❁ ❁

﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾

الصغير يسبق الكبير غالبا عند الحديث عن كتابة الأعمال وتقييدها في الصحف

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾

هكذا يتساءل المجرمون حين يوضع الكتاب فيشفقون مما فيه

لم تغادر الصغيرة

أفيغفل عن الكبيرة؟!

هذا أول ما يتبادر إلى الذهن حين يفكر في سبق الصغائر

لا شيء متروك ولا مجال للسهو وما كان ربك نسيا

ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لكن ثمة معنى أدق

معنى خاص بمن يذكر هذا التدقيق في سياق الحديث عنهم

الكافرين والمجرمين

لهؤلاء في جل المواضع التي فيها ذكر كتابة أعمالهم تسبق الصغائر كبائرهم

وكأن في هذا إشارة إلى قطع الطمع في أي عفو أو تجاوز

حين يقرر دائن أن يطالبك بالمبلغ الضخم الذي ماطلت في أدائه ويصر أن يسبق أداؤك لذلك الكسر الزهيد سدادك للمبلغ الكبير فهو بذلك يبين لك ألا مجال للعفو أو التخفيف

ولله المثل الأعلى

ومن نوقش الحساب عُذب

هكذا بيَّن نبينا ﷺ أن تفصل المحاسبة عن كل همسة وعن أي زلة وأن تذكر بكل هفوة وسقطة = فذلك وإن كان من تمام العدل فإن ما نرجوه من الله هو الفضل والعفو

وهذا ما يعامل به التائبون ممن يتجاوز عن سيئاتهم أو أولئك الذين تبدل سيئاتهم حسنات

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾

هذه هي المعاملة التي عليك أن ترجوها من ربك

وأن تسلك سبلها لعلك في ذلك اليوم تنالها

تنال التجاوز

والعفو

سورة الرحمن

أنت مخلوق

تلك هي النعمة الأولى التي مستك من خلالها رحمة ربك

خلقت من نطفة لا أحد يأبه بها ثم صرت إنسان تسمع وتبصر وتؤثر فيما حولك ومن حولك

من دون هذا الخلق أنت لا شيء ولم تك شيئا

ثم تعالى صراخك وتصاعد صوت بكائك وبالكاد ميز أقرب الناس إليك أهم احتياجاتك

هو يبكي لأنه جائع

هو يصرخ لأن حرارته مرتفعة

هو يئن يبدو أن معدته تؤلمه

تحتاج إذا للبيان

لابد من توضيح احتياجاتك وإظهار مطالبك وأغراضك

من دون البيان أنت كرضيع بالكاد يمكن تمييز مطالبه واحتياجاته من بين صرخاته وبكائه

فعُلِّمت البيان

صرت تستطيع التعبير عن نفسك وصياغة مشاعرك وأفكارك

كل هذه رحمات ونعم ذات ترتيب واضح متوقع

لكن ثمة رحمة تسبق في قيمتها وعلو شأنها واحتياج هذا المخلوق إليها رحمة خلقه نفسها

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾

تلك كانت الأولى في الترتيب عند ذكر الرحمات المتوالية منه

من الرحمن

بعدها يذكر الخلق والبيان وتسخير الشمس والقمر والأرض والسماء وتأتي سائر الرحمات والآلاء

لكن تظل الصدارة له

للقرآن

هكذا ينبغي أن تنظر إليه

وكذلك ينبغي أن يكون قدره في نفسك وواقعك

في الصدارة

❁ ❁ ❁

في سياق الحديث عن النعم الربانية والتقدير الإلهي المحكم للخلق بحسبان دقيق لا يزيغ ولا يميل في أرض أو سماء ولا في شمس أو قمر = يأتي ذكر الميزان

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

ليس مرة ولا مرتين

بل مرات أربعة تتكرر في السورة مادة (و.ز.ن) ويذكر كذلك القسط والنهي عن الطغيان ونفي البغي

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾

في العربية يشيع إطلاق الميزان على العدل وتكثر استعارته على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس

وجمهور المفسرين على أن الميزان المذكور في هذه الآيات من سورة الرحمن وإن كان يشمل معنى المكيال المعروف فإن عموم اللفظ هو المقصود

إنه العدل إذاً

القسطاس المستقيم

إن ذكر العدل في ذلك السياق يحمل معنىً عزيزا ودقيقا لا ينتبه إليه كثير من الخلق حين يتحدثون عن العدل ويغفلون في طيات حديثهم أنه ليس مجرد وصف عابر أو مطلب تسعى الجموع خلفه

العدل حق منزل من عند المولى جَلَّ وَعَلَا قرن إنزاله بإنزال كتبه

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

وهو كذلك تكليف رسالي حمله الله أمانة على عاتق أحب خلقه إليه

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

وهو نعمة منزلة ومنة موهوبة

نعم وربي... العدل = نعمة وليست أي نعمة

إنها النعمة التي استحقت الاقتران بأعظم ما أنزل وهي الكتب كما اقترنت بأعظم الخلق وأدق الإحكام وأن تصحب هذه النعم الجليلة التي تحتشد بها أكثر السور تكرارا للفظ "آلاء" والذي يرادف النعم

العدل قيمة إلهية وهبة ربانية امتن الله بها على خلقه ابتداء وكلفهم بالتزامها وحرم عليهم نقيضها كما حرمه على نفسه «**إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**» ثم يحاسبهم على تركها أو التقصير في حقها انتهاءً

عندما ينظر المرء للعدل من هذا المنطلق يدرك حقيقة كونه مقصدا أسمى ومنة سماوية عظمى وليس عطية يتكرم بها مخلوق أو يتفضل بها فانٍ

العدل حق وقسطاس أراد الخالق جل شأنه أن يكون هو الميزان الذي يحتكم به خلقه وليكونوا من المقسطين

والله يحب المقسطين

ولا يهدي القوم الظالمين

❁ ❁ ❁

لا بشيء من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد

كانت هذه إجابة تلك المخلوقات حين استمعت لذلك السؤال القرآني المتكرر في أكثر من ثلاثين موضع في سورة الرحمن

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

" لقد كان الجن أحسن رداً منكم، كلما قرأت عليهم فبأي آلاء ربكما تكذبان، قالوا: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب ربنا ولك الحمد"

هكذا بيَّن رسول الله ﷺ حدوث ذلك التفاعل من الجن مع كلام الله وكذلك أوضح استحسانه لذلك التفاعل في مقابل تلقي الآيات بدون رد فعل أو إجابة وتجاوب مع السؤال القرآني

الجن أدركوا أنهم مخاطبون بهذا السؤال = فأجابوا

وفي كل مرة يتكرر السؤال كانت تتكرر الإجابة

وبخلاف مضمون الإجابة الرائع والذي يحتوي إقرارا عقديا بنعم الله وآلائه وحمده وشكره عليها = فثمة قيمة أخرى ينبغي لمتدبر ذلك الموقف أن يتأملها

قيمة التفاعل مع القرآن

لقد كانت دوما ردود الأفعال عند أولئك الذين أدركوا تلك القيمة شبيهة برد فعل الجن على هذا السؤال

هذه القيمة لن تدرك إلا بعد ترسخ حقيقة أن الله يتكلم

عندئذ سندرك أننا مخاطبون بكلامه هذا

ومن يدرك ذلك لابد أن يتفاعل وأن يجيب ويستجيب

حين نودي آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقيل له ولزوجه: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ = كان التفاعل مباشرا والإجابة سريعة وواضحة محددة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

ولما نودى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وسُئل عما فى يمينه أجاب وأستفاض في الإجابة:

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: هي عصاي

لكنها المناجاة والتفاعل مع كلام الملك

وحين يُسأل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن اتخاذ الناس له ولأمه إلهين من دون الله سيجيب قائلا: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

ولما سمع الصحابي أبو الدحداح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن الله يسأل: (من ذا الذي يقرضه قرضا حسنا) أجاب فورا بإجابة عملية وتصدق ببستانه البهيج صائحا: البستان قرض لله البستان قرض لله

وبعد أن ذكر الله بشاعة الخمر والميسر ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ صاح المجيبون: انتهينا يا رب انتهينا يا رب وسالت الخمر في شوارع المدينة أنهارا

وهكذا كان التفاعل مع قول الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾

ألم يأن؟

سؤال لابد له من إجابة

ولا تصح له إلا إجابة واحدة فلا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك قائلا بالقول والعمل: بلى قد آن قد آن

فقط يحتاج أن يستشعر أن السؤال موجه إليه و ستأتى الإجابة بإذن الله

حين وقعت تلك الكلمات من قلب الفضيل بن عياض موقع التجاوب

والشعور بالمخاطبة كانت الإجابة وكان التغيير الشامل في حياته وصاح معلنا إياها: بلى يا رب قد آن... بلى يا رب قد آن

هذه النماذج المتعددة والمتنوعة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات ونداءات المولى جَلَّوَعَلَا على غرار تجاوب الجن وتفاعلهم = تعد غيضا من فيض نماذج لا تحصى كانت رد الفعل الطبيعى من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون

وهذا ما فعله و يفعله من يدركون قيمة النداء الربانى ويعون حقيقته ويستشعرون مخاطبتهم به

وذلك هو الفارق الرئيس بيننا وبينهم

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كلام الله لهم.

إنه الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذي عطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم وقد أجابوا واستجابوا

الفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومسارعته بالإجابة والعفو عن مسطح حين سمع السؤال القرآني ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فكانت الإجابة المباشرة: بلى وَالله إِنِّي لَأُحِبّ أَنْ يَغْفِر الله لِي!

لقد تفاعلوا مع القرآن ونظروا إليه نظرة سديدة دقيقة ظهر أثرها جليا في ردود أفعالهم التي ذكرت في السطور السابقة طرفا يسيرا منها

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: أن الله يكلمنا

هذه الآيات كلام الله لنا

ملك الملوك يخاطبنا نحن

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا

لك ولي...

كيف إذاً لا أرد؟

كيف إذاً لا أتفاعل؟

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم

الحقيقة أن كثيرا منا يتعاملون مع القرآن على أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة أو أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسى أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمى

حقيقة أن ربنا يتكلم..

وأن هذا الذي نتلوه ونسمعه = كلامه ونداءاته وسؤالاته

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جَلَّوَعَلَا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها

آثار قد تجدها في آية أو في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت

تنتشلك معانيها..

تشفيك موعظتها..

وتضيء توجيهاتها طريقك و يخاطب مضمونها قلبك ويمس محتواها فؤادك

وتهفو إلى رحابها روحك

حاول أن تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق

حاول أن تتفاعل معه..

أن تجيب عن سؤالاته

وأن تمتثل لأمره

وتنتهي عن نهيه

حاول استشعار أنك أنت المخاطب

أنت

نعم أنت..

القرآن كله يحتشد بالنداءات والسؤالات والأوامر و النواهي الموجهة لك أنت ويفترض أن تتعامل معها كما تعامل الجن مع سؤال سورة الرحمن

كل كلمة يا عبادي أو يا أيها الذين آمنوا أو يا أيها الناس تشملك أنت

الله ينادي ويدعو عباده

وأنا وأنت من عباده

يدعوك أنت و يدعونى أنا وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك

يدعوك لدار السلام والجنة والمغفرة بإذنه

يدعوك لما يحييك ويناديك لما فيه خيرك

كم امتلأ كتابه بالنداءات التى لم ترعها سمعك

كم مرة سمعت يا أيها الذين آمنوا ويا أيها الناس ويا عبادى

نعم هذا أنت

أنت المنادَى وهو المنادِي

هل لابد أن ترى اسمك مكان كل كلمة عبادي أو الذين آمنوا أو الناس وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادى؟

لماذا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنى

وتستمتع بشعور جديد

شعور أن ربك يناديك

يكلمك..

يسألك..

ويدعوك ليغفر لك

حاول

وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير

وستلمس بإذن الله تغيرا واضحا في علاقتك بالقرآن

فقط إذا ترسخت في نفسك تلك القيمة

قيمة أن ربك يكلمك

يكلمك أنت

الفهرس

سورة الحجرات..... ٦

سورة ق..... ١٢

سورة الذاريات..... ٢٥

سورة الطور..... ٣٦

سورة النجم..... ٥٢

سورة القمر..... ٧٠

سورة الرحمن..... ٨٨

فهرس..... ٩٨